# يقظة

قصة

بقلم ضياء الشرقاوى

فى أطراف السماء البعيدة سحب قاتمة ثقيلة تتراكض ناشرة أجنحتها الرطبة • تتفرق فتبدو مثل قطط سود تحدق بفريسة ، وتتلاحم فتبدو كحائط سميك تختفى خلفه الشمس التى تصعد السماء بأقدام من الارهاق والاعياء • وكان هو واقفا، وقد أوسع مابين ساقيه، كأنه يثبت نفسه تثبيتا قويا فوق أرضه ، أرضه هو ، كان خصوما أقوياء يصارعونه ، ويريدون القاءه القاء بعيدا عنها • يريدون اقتلاعه اقتلاعا • وقد لصقت قدماه العريضتان الخشنتان بالارض وغاصتا قليلا فى الطين الرطب. وبرزت عروق كثيرة منتفخة غليظة حول ساقيه وساعديه مثل الاسلاك التى لفها هو حول خيزرانه لتزيدها تماسكا وصلابة وقوة • وتحسس صديريه الجديد بكفه ، ورمقه بلذة وسعادة • واحس كان هذه الثياب الجديدة التى اشتراها منذ فترة قصيرة تذود عنه برد الدنيا كلها وقسوة الشتاء ، بل ، تعلن للناس فى كبرياء واعتزاز انه صار من الناس ، يراوده هذا الاحساس بغموض . كيف تعلن هذه الثياب انه صار من الناس ؟! . ألم يكن منهم قبل ذلك ؟ . وتبلل ابتسامة رطبة عميقة شفتيه الجافتين كلما شبعت هذه الخواطر كيانه • وسمرته تلتصق التصاقا عذبا بسمرة أرضه • كأنه جزء منها ، ابن لها • كأنه نبت منها • خرج من أحشائها • ولم يكن ذلك الاحساس غريبا عليه هو الذى ضمته سواعد هذه الارض منذ صغره مثل أم حنون طيبة ، أم كبيرة • وأخذ فأسه يرتفع وينخفض بقوة ، قوة حنون • كان كنوزا هائلة فى جوف أرضه يريد استخراجها ، كنوزا مخيفة • كانت ضرباته مملوءة بالثقة ، بالاخلاص المتزايد ، بالتفانى • ان أرضه لن تعيش الا بهذه الضربات القوية • وقلبه يخفق كأنه يمنحه مزيدا من القوة والاخلاص والحياة • ويحس بخفقات قلبه تتسرب الى كل جسمه فتسرى الى فأسه وتتدفق الى أرضه لتغمرها بالحياة ، بمزيد من الحياة • وحينما همس لنفسه أنه لم يكن مخلصا لهذه الارض قبل أن يملكها ، حينما كانت فى حوزة الباشا ، غمره الخجل والاسى • وهب فى صمت يدافع عن ولائه لها • وانه كان دائما أبدا وفيا مخلصا منذ ضمته الى صدرها الدافىء أبدا • انه يحس بل يؤمن بأن صدرها دافىء دائما ولو أغرقتها مياه الترعة فى عز الشتاء • وابتسم مرة أخرى لهذه الاشياء الجديدة الكثيرة الحلوة ،

والغامضة في بعض الاحيان ، التى يفكر فيها ، والتى تشرق فى رأســـه دائما رشيقة نابضة حية مثل صغار السمك الذى يعوم على سطح الترعة ، ويجـرى هنا وهناك بمرح دون خـوف من صائد فيلوذ بالاعمـــاق المظلمـة أو الاركان الضائعة ، أو أسفل صخرة تبدو مثل شبح مقيت • صغار السمك الذى يبدو كأنه مربوط الى أشـعة الشمس ، الى خيوط النور • تبدو فجأة ، وتهبط ، ثم تطفو • هكذا أفكاره التى تهمس له انه مثل طفـل صغير ولد حـديثا رغم أعوامه الاربعين • انه ولد مرة أخرى ، من جديد ، يوم تسلم عقد التمليك من الرئيس نفسه • وتحول راسه مسرحا لذلك الاحتفال . لمع كل شىء فيه كأنه يحدث الآن • الآن وليس منذ شهور • لم يكن لديه شىء جديد يرتديه فى ذلك اليوم • لم يكن لديه غير الجلباب الدبلان الناصع اللون ، وبه رقعـة كبيرة فوق صدره ، وقد انتهى فوق ركبتيه • وتحته صديرى مضغته الايام الكثيرة الجائعة بأسنان حادة غليظة فتناسلت خيـوطه وتساقط لونه • والطاقية البنية ، وشال ابنه محمد (لفعه) حول عنقه ، و(بلغة) ابنه محمد أيضا أخـذها فى قدميه • وتقدم الى الرئيس وبه خجـل هائل • يود أن يعتذر له عن هيئته المزرية ويقول ان هذا كل ماعنده فماذا يفعل والاولاد كثيرون لم يتركوا له شيئا أمامه أو خلفه •• ( تسعة أولاد يا سيدى الرئيس •• كل شىء أفعله فهو لهم •• نسيت نفسى •• بـل أنا لهم •• لهم يا ســـيدى الرئيس ) •• ورمق الناس لحظـة • وكاد أبومحمد أن يهرب• ولكن احساسا دافقا دفعه دفعا الى الداخل • تقـدم يا مفيد عبد الرحمن عبد المتعـال بـلا خجل • مم تخجل أيها الجذر القـوى المخلص ؟ • تقدم لتستعد كبرياءك • لتستعد نفسك من بين هذه الايدى غير المخلصة التى تستعبدك • ارتج فى هذا اليوم فى هذه اللحظات • وارتجف • كأنه يتـلاشى ثم يبنى من جديد ، ثم يتلاشى ، ثم يبنى من جديد هكذا • ألف مرة • أيهـــا الجذر القوى المخلص • وصارت روحه أسفل ذقنه حينما بطش الميكروفون بالاشباح التى تحيط به • أنه لم يحس بهـا أشباحا الا فى ذلك الحين فقط • ودوى اسمه مرة أخرى كالرعد • السيد المواطن مفيد عبدالرحمن عبد المتعال • دوامة أخذته أخذا • وزأر الميكروفون باسمه مرة ومرة قبـل أن يتحرك من مكانه • لم ينادوه باســمه الذى يناديه به الناس « أبو صباع » • ناس كبار ، كبار خالص ، ينـادونه باحترام ، احترام كبير • وكان فى تردده قبل أن يتحرك كأنه غير واثق من أنهم يعنونه ، هو هونفسه• ربماكان انسانا آخر ، ولكن هذا الاسم هو اسمه الذى سماه له أبوه يوم ولد • يوم لم يـكن أبو صباع • اسمه واسم أبيه وجده • الاسم المكتوب فى شهادة الميلاد وعقد التمليك • كان الورقتين شهادتا ميلاد • ولد مرتين • وأحس مرة واحدة ببغض شديد لاسمه القديم • وتقبضت نفسه حينما ســمع الحاضرين فى الاحتفـال يرددون اسمه « أبو صباع » تقبضت فى حنق كأنها أصابع عملاق تخنق هـــذا الاسم البغيض وتميته ، بل تســحقه سحقا من الوجود .وتكورت كفه اليمنى ذات الاصـبع المفقود ، الاصبع الذى يذكره بأيام مريرة • لقد قطع هو هذا الاصبع يوم طلب «للجهادية» حتى لايقبل فى الجيش • فى ذلك اليوم أهوى على

الاصبع بسطور دون رحمة ، بل فى حنق . وصاح فى ابيه ، وفى نفسه ، وفى أشياء كثيرة كان يحس بها تحيط به كالاشباح :

لماذا أذهب الى الجيش وأموت هناك لماذا .. لماذا ؟

هذه الكلمات القليلة هى كل ما استطاع أن يلفظه من داخل كيانه كالثائر كالمقت . ليس له شيء فى هذا البلد فى وطنه كله ، حتى يذهب ليدافع عنه ويبذل نفسه من أجله . حتى الذهاب لمجرد فكرة الدفاع والذود عن الحمى أى شيء له حتى يدافع عنه ؟ لا شيء .. لاشيء .. ولا حتى لابيه او لجده ولجد من أجداده الكثيرين . بل كان شعورا غامضا يملأه فى ذلك الحين وهو أن يأتى هؤلاء الاعداء الذين يدفعون بأمثاله كى يقاتلوا ، حتى يقتلوا الباشوات . عبودية بعبردية لامبالاة . لماذا يدافعون عن أرض الوطن ؟ . لماذا ؟ والباشوات يدفعون البدل ليعفوا من الجيش ويتركوا الأمر لهؤلاء المضوغين ، الموطوئين . وطار اصبعه فى ذلك الحين ولم يحس بأى ألم فى نفسه . بل أحس كأنه ينتقم يتشفى ،وعندما تقدم من المنصة اكتسحه الخجل والأسى . كان عيتى الرئيس تسألانه فى صمت عن تاريخ هذه الاصبع المبتورة ـ ولو أخفاه فى قبضته المتكورة ـ وكأنه سيسأله فى صمت أيضا «وهل تريدنا أن نمنحك قطعة من الارض انت الذى ضننت بنفسك من أجل الدفاع عنها ؟ هل تريدنا أن نمنحك قطعة الارض ثمنا لخيانتك ولأصبعك التى قطعتها .

وتألم السيد المواطن مفيد عبد الرحمن عبد المتعال . وما زال يرن فى رأسه الصوت القوى المدوى الذى انطلق من الميكروفون هادرا كأنه يعلن للناس كلهم اسمه الجديد الذى يعنى أشياء كثيرة .. كثيرة جدا . وفوجيء أبو محمد بالرئيس يمد له يده مصافحا ، وارتبك عليه أن يمد له يده اليمنى،ذات الاصبع المفقودة . كأنه حين مد يده اليه يسلم اليه تاريخا شائنا رديئا طافحا بالظلام والخوف والجبن . هذا التاريخ المظلم الحافل بالاصابع المبتورة الضائعة . وأحس بكفه فى كف الرئيس . أحس بها فجاة هكذا لايدرى من الذى وضعها فى كفه تلقائيا ، فى طمأنينة . احساس غريب . كأنه سلم الرئيس كفه بعد أن تمازجت سمرتها . فقد وجد أبو محمد أن الرئيس أسمر مثله . كأنه فوجيء بهذه الحقيقة مفاجأة هائلة . ليس مثل الباشا الذى نصفه تركى وتجرى فى عروقه دماء أجناس عديدة مختلفة غريبة سمرة تهمس فى ثقة للسيد المواطن أن أرضا واحدة هى التى ولدتنا . هكذا شعر مفيد . وربما لهذا وجد كفه فى كف الرئيس يتصافحان فى اشتياق ، فى حب .

وانفجر مفيد حينذاك ضاحكا فى سعادة واحس بأصابعه تتشابك فى أصابع الرئيس ، وابتسامته تمتزج بابتسامته كأنهما يمتزجان . وأحس بورقة نظيفة كبيرة ملفوفة بعناية تملأ كفه . أحس بها مثل أصبع كبير نظيف ينبت فى كفه بدل الاصبع المفقودة .

وضحك مفيد ضحكا عميقا ، وساقت هذه الموجات المتلاحقة من الاحاسيس موجات عالية من القرقرة .

وغمس نظرة فى عينى الرئيس كأنه

يبحث عن معانى التأنيب التى لامفرمنها لما فعله مفيد فى شبابه . ولكنه لم يجد تانيبا وكان العينين تقولان له :

ـ عفا الله عما سلف . وضمه الى صدره ضمةقويةوالتحما وتراءيا كعملاق كبير . لن ينسى مفيد هذا اليوم طول حياته . واسرع بعد ذلك واشترى بيتا لاسرته ، وتركوا البيت الذى يملكه الباشا ، واشترى ثيابا جديدة لهم جميعا وبدأ الناس ينادونه باسمه «مفيد» .

بدأ يفيق . يستيقظ .. واعتدل فى وقفته واستند الى فاسه وجذب نفسا طويلا ومس حدودارضه بعينيهمسا رفيقا كانه يتأكد من انهـا لم تنقص شبرا واحدا . وارتطمت عيناه بقادمين منبعيد وانتابه الفضول فدفق النظر ، وأخذت ملامحهم تتضح . الباشا ، الباشا الذى كان يعمل عنده من قبل وانحنى على على فاسه بسرعة كانه يخفى نفسه .. وتولاه الخجل . وانتفضت كبرياؤه . مم يختفى؟ . ولم يختفى ، فعاد وانتصب كانه يريد أن يبدو له ولمرافقيه عملاقا ، أكثر عملقة . ودفع بساقيه الى الامام ، كانه يقول :

ـ انا هنا .. انا هنا .. وهـذه ارضى ..

وجذب الباشا السابق لجام حصانه فتوقف هو ومرافقوه على بعد خطوات قليلة من مفيد وقال بجفاء :

ـ ولد يابو صباع ، لماذا لم ترسل امراتك وأولادك كى يقشروا الذرة ؟

فشدت أصابع مفيد حول يد الفأس بقوة ، بغضب ، وصاح :

ـ أبو صباع هذا كان زمان . كان أيامكم ياحضرة ...

فصرخ الباشا :

ـ اسكت ياكلب .

وزعق مرافقوه :

ـ هل ترد على الباشا ياأبو صباع ؟

فصاح مفيد :

ـ أبو صباع هذا كان أيامكم . . هل تفهمون ؟

ودق الارض بفأسه كانه ينذرهم . وتساءل أحد المرافقين ساخرا :

ـ وما اسمك الآن ياسيدى ؟ :

حضرة العمدة ...

وزعق مفيد بأعلى صوته :

ـ الرئيس ، الرئيس نفسه ، نادانى بالسيد المواطن .

فقاطعه الباشا قائلا :

ـ لابد انه لم ير أصبعك المقطوعة .

وكان كل السحب السوداء القاتمة التى تملأ السماء ملأت عينيه فى تلك اللحظة ، فاهتز فى موقفه وشدد قبضته على الفأس . كان ضربة قوية غادرة عاجلته من الخلف . وأحس كأن أصبعه المبتورة أخذت تقطر دما . أحس كانه هو كله أصبع مبتور . وانطلق يصيح :

انا اسمى مفيدعبد الرحمن عبدالمتعال .. السيد المواطن مفيد عبد الرحمن عبد المتعال .

ـ أبو صباع هذا سيريكم من هو ؟ امرأة مفيد وأولاده أسيادكم .

فهمهم الباشا :

ـ والله عال .. هل ستهدم بدنيتا بأصبعك المقطوعة ؟.

وانطلق ومرافقوه ، ودمدم مفيد .. ودق الارض بفأسه في ثورة .. وود لو ينطلق ويقضي عليهم بفأسه، بل يسحقهم سحقا .

ـ سيريكم أبو صباع ماذا سيفعل ؟

***

عندما اشتعلت معركة بورسعيد .. كان هناك عملاق ريفي كفه اليمنى ذات أصبع مفقودة .. متمدد على بطنه فوق الارض يمطر الاعداء بالرصاص بشدة واصرار وثقة .. وبه احساس أنه يفي بوعد . انه يرد دينا كبيرا كان عليه .. انه يدافع عن شيء له ، عن أرضه ، أرضه هو .. احساس هائل يملأه بأن رصاصه وهو في بورسعيد يملأ سماء قريته .. يملأ قصر الباشا . يملأ آذان الناس جميعا .. وان اولاده الآن فخورون . وان كلمة «أبو صباع» تعني انه هو الذي قاتل في بورسعيد بشجاعة . وانه هو الذي يستطيع أن يفعل كل شيء .. وانه هو الذي يدافع عن وطنه الآن ، هو الذي هرب من الدفاع منذ سنوات ، أي أنه صار شيئا ، شيئا كبيرا عملاقا قويا . وانه هو وأولاده هم هم الذين يمتلكون الارض . وان لهم الحق كل الحق في ان يكونوا أصحابها . وعندما أحس بدم دافيء يبلل كتفه ورأى هذا الدم يمتزج بالتراب الاسمر أمامه أحس بمزيد من الشجاعة ، من السرور ، وببساطة وضع فوق جرحه حفنة من التراب . وحينما التفت اليه جاره قائلا :

لقد قضينا على الدفعة الثانية من جنود المظلات .

ابتسم مفيد من اعماقه وهزته ابتسامته واحس بثقة متزايدة بانه يستطيع ان ينتصر بالرغم من أصبعه المفقودة ، وان ينتصر الى الابد . ورفع يده اليمنى ليحملق في أصبعه المفقودة وبه شعور جامح ان أصبعا عملاقة كبيرة ببتت مكانها وسأله زميله :

ما اسم سيادتك ؟

ـ مفيد عبد الرحمن عبد المتعال .

أهلا وسهلا ياسيد مفيد .

وامتلأ كيانه بمادة هائلة واجال بصره في السماء بتحفز وثبات وطمأنينة وقوة ، وردد في نفسه :

أهلا وسهلا بك ياسيد مفيد .

وضغط على كلمة « يا سيد » بقوة وثقة وسعادة .